النهضة الشرقية الحديثة

اظهر مظاهرها وابقى آثارها

كان الاحتفال بعيد المقتطف الخمسيني باعثاً على التأمل في احوال النهضة الشرقية الحديثة ، فوقف المفكرون هنيهة ينظرون الى الوراء يستعرضون خمسين سنة انقضت منذ بدأت في الشرق الادنى نهضة عامة تؤذن بانتظام الامم الشرقية مع الامم الغربية في موكب العمران الفخم . في هذه الحقبة شيدت المدارس على اختلاف مراتبها من اولية وثانوية وعالية وزاد الاقبال عليها رويداً رويداً ، وانشئت الصحف اليومية والاسبوعية والشهرية واخذت تزداد عدداً وحجماً ومقاماً وانتشاراً ، ونشرت حقائق العلوم الطبيعية والاجتماعية واساليب التفكير والبحث الحديثة ، وكثر المتأدبون والكتّاب وارتقى ما يكتبونه وتنوّع وزاد جمهور القراء بازدياد المدارس ، وتقدمت مرافق البلاد الاقتصادية فارتقت الزراعة واتسعت ابواب التجارة ، وتحررت المرأة بعض التحرر ودخلت ميدان الاعمال . ثم جاءت الحرب العالمية فنبهت في شعوب الشرق الادنى روح الاستقلال القومي بعد ما نبّه التعليم الغربي روح الاستقلال الشخصي ، وبثت الحذر والخوف من وسائل الغرب السياسية فكان من كل ذلك ما نسميه نهضة عمرانية تشمل مصر والشام والعراق وبلاد العرب وغيرها من البلدان المجاورة لها

وقفنا نستعرض كل هذا ونسأل انفسنا ترى اي مظاهر هذه النهضة اظهرها — السياسي منها ام الفكري ام الاجتماعي ، أطلب الاستقلال القومي ام اقتفاء علماء الغرب ومفكريه في اساليبهم ، ام طلب الاستقلال الفردي ونشر التعليم وزيادة الثروة العامة ؟ وهل تتصل اصول هذه النهضة باعماق النفوس ، يلقنها الجيل الحاضر للجيل المقبل ، ام هي مظاهر تبدو على وجه الحياة العامة ثم لا تلبث ان تزول . هذا ما جال في خاطرنا حين وجهنا الى نفر من اصدقاء المقتطف واكبر الكتاب والمفكرين في البلدان العربية والمهاجر السؤال التالي « ما هي اظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة (ويراد بالشرقية ما يشمل مصر وسورية والعراق وبلاد العرب و«بالحديثة» عهد المقتطف اي منذ خمسين سنة الى الآن) وما يحسن ان تفضي اليه من النتائج الباقية الاثر في التاريخ » فتكرموا ولبوا وسننشر رسائلهم تباعاً في اجزاء المقتطف هذه السنة ليطلع عليها قراؤه وتكون خلاصة طلبنا وافية لآراء اكبر المفكرين في هذا القطر وسائر الاقطار العربية

١ — رأي الامير شكيب ارسلان

خطر لبعض المفكرين ان يسأل الناس رأيهم في هذه النهضة الشرقية العربية التي بدأت منذ نحو قرن في مصر والشام والعراق وما جاورها من بلاد العرب ثم حمي وطيسها منذ خمسين سنة اي منذ ظهر المقتطف وان يستطلع اعلى الذكر مذهبهم في اي مظهر من مظاهر الحياة كانت هذه النهضة اجلى واسطع وابقى اثراً وان يكون كلام من يرى زبدهُ للجواب في عجالة موجزة لا تجاوز اربع صفحات من هذه المجلة

ولما كان هذا العاجز على ضلعه ممن أُلقي عليهم هذا السؤال لم اجد بدًّا من الاجابة بما يفتحهُ الله عليَّ من هذا الباب تاركاً للقراء سد ما يوجد بينهُ و بين الواقع من فراغ . فاقول:

نهضة العلم والتعليم

لا حاجة الى القول بأن اجلى مجالي هذه النهضة كان في العلم والتعليم . وعندي انهُ لا نهضة للامم سوى النهضة العلمية فاذا وجدت هذه جاءت سائر النهضات من سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية الخ آخذاً بعضها برقاب بعض . فاذا قلنا ان الشرق الادنى نهض نهضة علمية كفينا تعداد سائر مظاهر نهوضهِ ومعارج رقيهِ لان العلم وحدهُ هو المفتاح و به وحدهُ الدخول الى داخل البناء وكل نهضة لا يكون ظهرها العلم فما هي الاَّ ساعة وتضمحل . وقد يقال ان نهضة شرقنا هذه ضئيلة لا تستحق ان نذكر بالقياس الى معالي الامم الراقية واننا لا نبرح مختلفين بمساوق شاسعة عن امم اوربا واميركا واليابان فماذا نشغل انفسنا بما لا يشغل حيزاً في التاريخ العام ؟ وعلى هذا نجاوبهُ انهُ ليس العلم مطلقاً بانكمال وحدهُ ولا البحث موقوفاً دائماً على ما بهر النعي وبلغ سدرة المنتهى وانما العلم هو ما تناول الدرجات كلها الدنيا منها والقصوى والبحث هو الذي به توزن مقادير الاشياء وتحدد نسبة بعضها الى بعض ونسبتها الى الوقت . ثم اننا اذا تحرينا الحقيقة وجدنا الشرق العربي قد اجتاز في هذه الخمسين سنة في طريق العلم والحضارة الحديثة ما لم يتهيأ لاوربا ان تجتازهُ في اطول جدًّا من هذا الروح من الدهر . وذلك انهُ من الطبيعي ان يسهل على المتأخر مالا يسهل على المتقدم لان المتقدم قد يضطر ان يمهد الطريق و يسير واما المتأخر فما عليهِ الاَّ ان يلحق و يسير على طريق مذلَّل امامهُ

محمد علي الكبير مؤسس النهضة

فالنهضة الشرقية العربية — نسميها بالعربية اخراجاً لما سواها من نهضات الشرق كنهضة اليابان والصين في الشرق الاقصى ونهضة فارس والافغان والهند في الشرق

الاوسط ونهضة الترك في الشرق الادنى بحذائنا — قد بدأت في الواقع منذ اكثر من مائة سنة لعهد محمد علي عزيز مصر . فهو اول من لحظ الخطر الحائق بالشرق من جراء جموده على اساليب العمران القديمة وجعل نصب عينيه حُدَيًّا الغرب في اساليبه الجديدة حتى يتأتى للشرق ان يقاتل الغرب بسلاحه و يدفعهُ عنهُ ويستقل بنفسه .اذ كانت سنّة الله منذ وجد العمران على سطح هذه الكرة انهُ كلما تقوى جانب منها سطا على الآخر واجتاحهُ وضرب عليهِ الذلة والمسكنة

فمحمد علي هو المؤسس الحقيقي لهذه النهضة الشرقية العربية ليس بوادي النيل فحسب بل في البلاد التي تجاور هذا الوادي المبارك وفي مقدمتها سورية . واول ما استنشأ السوريون ريح الحضارة الحديثة انما كان في زمن محمد علي وفي اثناء غزاة ولده ابرهيم باشا للشام .ثم انكفأ ابرهيم باشا الى مصر سنة ١٨٤٠ و بقيت في سورية آثار الانتباه ونزعة التجدُّد وجدَّ السوريون لاسيما اهل الساحل منهم يشدون اسباب المدنية الغربية لما رأوا بها من القوة والرفاهية . وآنس المرسلون الاميركيون هذا الاستعداد في اهل سورية فأسسوا في بيروت كليتهم الشهيرة فهي النبراس الاول الذي استضاءت بهِ سورية ولا يزال يزهر في آفاق الشرق الادنى الى يومنا هذا . ورأت امم اخرى ان ارض سورية قابلة جدًّا لبذور المعارف فبثوا فيها المدارس والكتائب وكل ذلك كان يبدأ في بيروت ثغر الشام البسّام في بيروت والحق يقال ابتزغ زوع العلم العصري واخرج شطأهُ ثم انبثَّ في جميع الشامات ثم فيما جاورها ونما واستوى على سوقهِ يعجب حتى الاوربيين انفسهم . واضطرت الدولة العثمانية ان تفتح المكاتب الرشدية والاعدادية في سورية ثم ان اقبل كثيراً من شبان السوريين في مكاتبها العالية في القسطنطينية فتخرّج فيها مئات لا بل الوف من الناشئة منهم من تقلدوا مناصب ملكية ومنهم من تعاطوا مهنة المحاماة او الطب او الصيدلة ومنهم ضبّاط نبغوا في الفنون العسكرية وامتازوا بين الاقران وان ضباط العرب في العراق وسورية واليمن كلهم ممن تخرج في مكتب بانقالديه بالاستانة وقد يزيدون على ثلاثة آلاف ضابط فيما يقال

ومع ان النهضة العلمية المصرية لم يكن الاصل فيها لا الكلية الاميركية ولا الكلية اليسوعية في بيروت ولا مكاتب الدولة بالاستانة فما لا ينكر ان مصر كانت ميداناً لجياد القرائح السورية وان اكثر الذين تخرجوا في بيروت انما ظهروا واشتهروا وتعلقت قناديلهم بمصر . كما ان لمصر على الشام فضل تخريج عدد لا يحصر من ابنائها في العلوم

اللغوية والشرعية بالجامع الازهر وتخريج عدد كبير من اطباء سورية بالقصر العيني . وما زال كل من القطرين المصري والشامي يشد احدهما الآخر في كل ضرب من ضروب الرقي . وقلما جدَّ في احدهما شيءٌ الاَّ سمعت رجع صداهُ في الآخر . على ان النهضة الشرقية العربية وان بدأت منذ نحو قرن لم تسر هذا السير الحثيث الاَّ في الخمسين سنة الاخيرة ومما لا جدال فيهِ ان لمجلة المقتطف يداً طولى في هذه النهضة لا ينكرها الاَّ المكابر

الصحافة والطباعة

فلما ظهر المقتطف في بيروت لم يكن فيها الاَّ ثلاث او اربع جرائد ولم يكن في سائر مدن سورية ولا جريدة . والحال انهُ لما نشبت الحرب الكبرى اي بعد ظهور المقتطف بثمان وثلاثين سنة كان ينشر في سورية وفلسطين نحو ثمانين جريدة موزعة بين بيروت وجبل لبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية وحمص وحماه وحلب وصيدا وحيفا ويافا والقدس . وكانت تظهر فيها مجلات شهرية واسبوعية بشكل كراسة لا تقل عن بضع عشرة مجلة . فهذا افصح بيان عن سرعة رقي سورية واني لا ارى في البيان افصح من الارقام . فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القراء ووفرة عدد القراء اول دليل على صدق عمل المدارس وانتشار العلم وتناقص الأُمية ويلحق الاستدلال بالجرائد الاستدلال بالمطابع فقد كان في جميع سورية منذ خمسين سنة بضع مطابع في بيروت وواحدة للحكومة في دمشق واخرى في حلب . والحال انهُ لا يوجد في سورية اليوم مدينة الاَّ فيها مطبعة بل مطابع . وانك لتجد منها في بعض القصبات التي لا يزيد اهلها على اربعة آلاف نسمة كثير القمر وجونية او الفيه كزين او بعض القرى البسيطة كاعبيه وعاليه . وبديهي أن صاحب المطبعة ان لم يجد لها عملاً يقوم بنفقاتها اسرع الى اغلاقها ولا يشتغل الانسان في الغالب الاَّ بما يعود عليهِ بالربح . وليس عمل المطابع الاَّ طبع الجرائد والكتب التي ان لم تجد عدداً كافياً من المشتركين والمشترين لم يقدم اصحابها على طبعها . وذلك ان لقول مثل ذلك في مصر التي كان فيها سنة عرابي بضع جرائد فبلغت جرائدها اليوم اضعاف ذلك ثم انهُ لوفرة عدد السكان وتزايد القراء منهم وارتقاء المستوى العقلي تجد بمصر جرائد يومية ذوات ثماني صفحات فاكثر تضاهي احسن جرائد اوربا اتقان كتابة وغزارة مواد وسعة انتشار وقد أكِّد لي احد الاخبار بين الاوربيين وكان يراسل احدى امهات جرائد مصر انَّ هذه الجريدة لو وضعت بجانب صحف باريز لكانت معادلة لاحسنها . وبلغني ان في القاهرة صحفاً يومية تطبع من ٣٠ الى ٤٠ الف نسخة كل يوم

الشيخ علي يوسف والمؤيد

وانا أورد لك مثالاً وقع معي : جئت الى مصر سنة ١٨٩٠ وزرت اصحاب المقتطف والمقطم الاساتذة الدكاترة فكانت المجلة والجريدة على رواج عظيم ولكن رواجهما اليوم لا يقاس به رواج الامس . أما الاعجوبة فليست هنا بل هي قصة المرحوم الشيخ علي يوسف . كنا نجتمع دائماً في مجلس المرحوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده واكثر ما نسمر عند صاحب الدولة سعد باشا زغلول وهو يومئذ سعد افندي زغلول المحامي الشهير بمصر . وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شخت الخلقة اسمهُ الشيخ علي يوسف يأتي فيجلس في الآخر ويلبث اكثر المجلس ساكتاً مستمعاً . وتكاد ترثي لهُ لضعفهِ وسكنتهِ . وكان قد بدأ باصدار جريدة اسمها « المؤيد » كانت تظهر مرتين في الاسبوع وهو يعجز ان يجعلها يومية . الاَّ ان هذا الرجل على ضؤولة جسمهِ كانت بادية عليهِ سيماء الهمة والعزم. وزرتهُ مرة الى مطبعة المؤيد فرأيتهُ جالساً على مقعد وث لا يسع اكثر من ثلاثة جالس بعضهم بجانب بعض وامامهُ منضدة بدون غطاء عليها من بُقَع الحبر ما يهول الناظر وهو يعالج تحرير مقالة في دخول العام الهجري الجديد يومئذٍ ولا يعرف كيف يصوغها . وكانت بجانب تلك الغرفة غرفة ثانية وبينها باب مفتوح وهذه الغرفة الثانية فيها المطبعة وانا من مكاني جلوسي ارى منضدي الاحرف من خلال الباب المفتوح يصفّون الحروف ولما رأيت الشيخ عليًّا في تعب زائد مع مقالتهِ هذه على الحول الجديد وهو يكتب ويطلس ويمحو ويثبت قلت لهُ : لو قلت كذا وكذا . . . فاجابني : بالله عليك تكتب هذه الافتتاحية. فكتبتها امامهُ . ثم بعد ٢٠ سنة من ذلك العهد جئت الى مصر وانا ذاهب الى حرب طرابلس فماذا وجدت ؟ وجدت جريدة المؤيد من اعظم الجرائد اليومية في مصر تطبع من ٢٠ الى ٣٠ الف نسخة كل يوم . ووجدت ادارة المؤيد تكاد تكون قصراً من قصور الامراء فيها الزرابي الحريرية المبثوثة والطنافس الفاخرة بدلاً عن ذلك المقعد الحقير عليهِ ذلك الغطاء القديم من الشيت . ووجدت مطبعة بخارية من اكبر المطابع كان اشتراها بخمسة آلاف جنيه مع ان تلك المطبعة القديمة التي رأيتها ما كانت لتساوي مائة جنيه . ووجدت الشيخ علي يوسف من اكتب كتاب مصر واسيلهم قلماً فضلاً عن انهُ من عيون اعيان مصر واشهرهم ذكراً . ولم يغفل الشيخ علي ان يذكّرني بزيارتي الاولى وهو على تلك الحالة وان يقابل بها الحالة التي رأيتها يوم زيارتي الثانية . فهذا المثال البارز كافٍ لقياس درجة الرقي الفكري في الشرق

المدارس

على ان الجرائد ليست وحدها في المقياس ويجب ان ننظر الى عدد المدارس والكتاتيب . فهذه بيروت التي لا يسكنها اكثر من ١٤٠ الف نسمة توجد فيها جامعات للعلم لو قرنتها بجامعات اوربا لم تقصر عنها . هذا عدا ما فيها من مدارس من الدرجة الثانية والثالثة بحيث لو قست حركة التعليم في بيروت الى حركة التعليم في اوربا مع مراعاة عدد السكان لوجدت كثيراً من المدن الاوربية لا تسبق امد بيروت . ومثل ذلك القدس الشريف الذي مدارسهُ العلمية والصناعية وافرة جدًّا بالنسبة الى عدد سكانهِ . واحصينا مرة في نابلس سنة ١٩١٢ عدد المتعلمين من هذه البلدة فوجدنا عددهم الفين من الاحداث في المكاتب الاميرية واحصينا عدد طلاب المدارس العالية في الاستانة واوربا فكانوا نحو مائة مع ان سكان مدينة نابلس لا يزيدون على ٢٥ الف نسمة

وهذه النسبة تمشي على اكثر سورية بدرجات متفاوتة . واظنها تنطبق ايضاً على الديار المصرية وان كنت اعتقد ان الاميين لا يزالون في مصر اكثر منهم في سورية . اما التقدم في التعليم في سائر البلاد العربية فاكثر ما برز للعيان اخيراً في مدة قصيرة في المملكة العراقية بعد ان حصلت على حكومتها الوطنية . والحكومة العراقية بهمة الملك فيصل معتنية بزيادة المدارس والكتاتيب ومنتظرة زيادة دخلها بعد مباشرة استخراج البترول لسد حاجة الاهلين كلها من التعليم العالي والثانوي والابتدائي . وقد بلغني ان كتبية القاهرة يصدرون كل سنة مقادير جسيمة من الكتب المدرسية وغيرها الى بغداد

الحركة التعليمية في نجد واليمن

ثم ان في نجد حركة تعليمية تستحق التنويه بها سببها ان الدعوة الوهابية توجب حمل جميع الناس على التعلم بدون استثناء . وهو عندهم بمقام الجهاد . فترى الفقهاء والمعلمين يجوبون الحواضر والبوادي ويفتحون الكتاتيب للاحداث وتشرق قبائل العرب وتغرب والمعلمون معها حتى لا ينقطع التعليم بالرحيل . فالامية في البلاد الخاضعة لسلطان ابن سعود ستكون نادرة . ولكن يعترض بعضهم قائلاً : ان هذا التعليم النجدي لا يساعد على الرقي بل هو من النمط القديم القهقري الجامد الذي ليس فيهِ كبير جدوى في هذا العصر . وهذا القول مردود من وجوه اولاً ان النجديين ملتزم عندهم تعميم القراءة والكتابة بدواً وحضراً وزوال الامية بنفسهِ درجة عالية من العلم . وبعد فانهم يحفظون الاحداث القرآن الكريم ويفسرونهُ لهم وايُّ كتاب حث على العلم والتعليم والبحث والسير والنظر ووقر العلماء ونوه بالحكمة

اكثر من القرآن ؟ ثم ان مذهب المجددين في الدين مذهب اصلاح وترقية وتنقية ومشرب بعيد بالمرة عن الخرافات والاوهام . وهذا المشرب مستحب جداً في العصر الحالي واذا سألت الاوربيين قالوا لك ان هذا المشرب هو الذي فك قيود الافكار وحل عقل العقول وكان فاتحة عهد الارتقاء في الغرب وكثيراً ما اطلق الاوربيون على الوهابيين لقب « بروتستانت الاسلام »

وهذا الملك عبد العزيز بن سعود وهو امام الوهابيين والمهيمن على تنفيذ مبادئهم لا يقف عن قبول اي علم نافع او اي اختراع عصري مفيد بل تراه دائباً في تجهيز مملكته باساليب العمران الحديثة . وعنده التلغراف والتليفون والاوتوموبيل يسير في طول البلاد وعرضها . وسيده السكك الحديدية ويستخدم الطيارات ويعتني بالوسائل العلمية لحفظ الصحة العمومية . واني بينما انا الآن احرر هذه السطور تأتيني وصاة من حكومة الحجاز بان نشد لها استاذاً بكتريولوجياً من سويسرة يقيم بجدة ويصيف بالطائف ويكون له راتب واف فكيف بعد هذا واشباهه يقال ان الوهابيين جامدون غير قابلين للجديد . والذي نعلمه ان الوهابيين يقبلون كل اصلاح ما لم يصادم الدين . والعلم والدين لا يتصادمان عند من احسن فهم العلم والدين - اما اليمن فالمسموع انه لا يكاد يوجد فيه قرية تخلو من فتيه يعلم الاحداث القراءة والكتابة ولا توجد مدينة ولا قصبة الا فيها حلقات التدريس للعلوم اللغوية والشرعية . واكثر من يعنى بالعلم هم اهل حضرموت . اما العلوم العصرية فان الامام يحيى بن محمد بن حميد الدين غير غافل عن الشق الذي لا يجد منه مندوحة لاجل وقاية بلاده . وقد سبق لمحرر هذه السطور مراسلة مع جلالته بينت له فيها ما لا بد منه عقلاً وشرعاً وعرفاً من اخذ اليمن بالمبادئ العصرية في العلم والصناعة تأميناً لاستقلال البلاد العربية من عوادي الاجانب الواقفين لنا بالمرصاد . فاجابني بانه غير مهمل لهذا الامر وان هذا الاصلاح وان كان لا يزال طفلاً في اليمن فسينمو ويكمل بحول الله تعالى . على ان في صنعاء مدرسة عسكرية ومعملاً صغيراً للسلاح يديره ضابط نمسوي وعدداً من ضباط الاتراك والعرب يدربون الجيش اليماني . وتجد الاسلاك البرقية ممتدة كما كانت في ايام الدولة وقد اضيف اليها التلغراف اللاسلكي الذي نصب الامام له عدة مراكز . وان صح خبر المعاهدة بين الامام وايطالية فيدخل الامام في جيشه وفي بلاده كثيراً من الاجهزة الحديثة

(ستأتي البقية) لوزان شكيب ارسلان

٢ — رأي الشيخ مصطفى عبد الرازق

اظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة في الشرق الادنى هي النهضة الفكرية التي تزحزح الشرق عن جموده والتي هي اساس لكل نهوض

بدت مظاهر الجمود العلمي في الشرق ، حين عدا على الشرق الجمود ، من وجهين : احدهما — صبغ العلوم كلها بصبغة واحدة ، والذهاب بغاياتها جميعاً الى وجهة دينية ، ليست هي الغاية التي تتجه اليها العلوم بطبيعتها

فعلم العروض الغرض منهُ ان تعلم ان القرآن الكريم ليس بشعر

وعلم الحساب تعرف بهِ تقسيم المواريث على النظام الشرعي

وعلوم الهيأة والفلك تهتدي بها الى القبلة ومواقيت الصلاة

والفلسفة يراد بتعلمها الرد على ما تتضمنهُ من آراء مخالفة للدين

والامر على هذا المنوال في سائر العلوم

ولا شك ان توجيه العلوم في هذا الاتجاه ضيق دائرتها ، وانحرف بها عن مذاهبها ، ووقفها عن التقدم ، ووسمها في قواعدها وشواهدها واغراضها بسمة خاصة هي صبغة الدين التي لا تحتمل كل ما تحتمل حرية البحث العلمي من فروض وتجارب وشكوك

والوجه الثاني — تغلب الاسلوب الديني على اساليب النظر المنطقي في جميع مناحي البحث ، وهو متصل بالوجه الاول

الدين يعتمد على نصوص مقدسة مصدرها الوحي الالهي ، وكل جهد التفكير الانساني فيها هو تفهمها وتأويلها ، والناس حكم وموّيدات من جانب العقل لما جاءت بهِ

اما البحث العلمي فهو يتناول الاشياء والحوادث والمعقولات ، يحلل تركيباتها ، ويؤلف بائتلها ويستقرئ جزئياتها ، ويصل بين عللها ومعلولاتها

هما اسلوبان متباينان ، قد لا يستغني الانسان عنهما ، لكن لا يجوز لهُ الخلط فيهما

على ان انحطاط الشرق ، وتقاصر الهمم فيهِ ، وارتباك العقول ، وفقدان روح الحرية والاستقلال ، كل اولئك خلط بين الاسلوبين بل محا احدهما ، واصبحت العلوم دينا تحترم نصوص المؤلفين السابقين فيهِ كما تحترم الكتب المنزلة ، ولم يبق للاحقين الا ان يتدارسوا ما كتب الاولون ، ويخدموهُ بشرح او حاشية او تقرير

وهكذا جمد العقل وجمد العلم وجمد الدين

***

ثم جاءت النهضة العلمية الحديثة في الشرق، تفصل بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية، وتخلص اساليب البحث العلمي من الاسلوب الديني

نشأت هذه النهضة في مصر باتصالها بالمعارف الغربية ، فقد جاء مع (بونابرت) علماء كانت آثارهم بزوراً لم تذهب كلها بداداً

وارسل محمد علي الكبير الى اوربا بعثات علمية اختارها من الازهر ، فذهبت متينة باخلاقها الدينية وتعليمها الازهري ، وعادت أشد متانة واوفر كفاية بما كسبت من معارف جديدة ، وبما عرفت كيف تفصل بين وجهة النظر الديني ووجهة النظر العلمي

اخذوا يضعون في ضروب من العلم مختلفة مؤلفات ليست متونا ولا شروحا ولا حواشي ولا تقارير ، وليست على ذوق الدينيين وما ألفوا من اساليب واخذوا يعربون خير ما عند الفرنجة من كتب في الفنون التي درسوها . واليهم يرجع الفضل في النهضة العلمية الحديثة

وقد وصل أثرهم الى المعاهد الدينية نفسها ، التي نشأوا فيها نشأتهم الاولى ، فتنبه اهل تلك المعاهد الى صنوف من العرفان لم يعرفوها واساليب من التفكير والبحث والبيان لم يألفوها

واذا كان ذلك مما أثار كفاحاً بين الجمود الذي لا يريد تغييراً والنهوض الذي يريد ان يحل العلم من عقالهِ ، وان يجعل للدين سبيلهُ خالصة ، فهو قد انبت بين الدينيين انفسهم فكرة اصلاحية ، وانهض من بينهم مصلحين يعملون على تقرير حرية العقل واعتبارها عما جاء به الدين

وكانت خدمة هؤلاء المصلحين للدين والعلم خدمة جليلة بما ابدوا حرية العقل من وجه ديني ، وبما حسموا اسباب عداوة بين الدين والعلم كان رجالٌ يثيرونها في نفوس الجماهير حرباً مدمرة

خدم هؤلاء المصلحون دينهم ، اذ ردّوهُ الى ينابيعهِ الصافية ، وجردوهُ من التشويه والتحنيف ، وأبرزوهُ كما انزلهُ الله من السماء نقيًّا حرًّا سمحاً كريماً

وخدم هؤلاء المصلحون النهضة العلمية في مهدها ، وصانوها من طغيان المجاهدين ، وردّوا عنها كيد الكائدين

ولقد كان الامام محمد عبده يهتف في الناس بكل ما اوتي من قوة الايمان وقوة العقل ، ان ليس من الدين ان يرمى بالكفر اهل النظر العقلي وان زلوا ، فانما هم يطيعون الله في تحريك عقولهم « ويتفكرون في خلق السموات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانك »

اما الذين جاؤوا بعد الشيخ محمد عبده يقذفون كل مفكر بالكفر ، فاولئك في ايمانهم ضعف وفي عقولهم

ومن العوامل التي لها في نشر الحركة العلمية في الشرق أثر مساعد العلم التي انشأها الاجانب

ولئن كان في كثير منها منازع مؤذية ، فقد تضاءل كل اثر لها غير صالح الى جانب أثرها العلمي ، فان العلم يأبى بطبعه الاَّ ان يكون مثمراً ثمرة خير

ومن قبل ما قال الغزالي : « طلبنا العلم لغير الله فأبى الاَّ يكون لله »

***

وقد نشأت الصحافة مع نشأة النهضة العلمية ، فكانت مظهرها قوة وضعفاً وتأثرت بها وأثرت فيها

لكن الصحافة كثيراً ما تراعي هوى الجمهرة من قرائها ، وكثيراً ما يكون هوى العلم غير ما تهوى الجماهير

بيد ان مجلات علمية نشأت في عهد علمي وحملت لواء العلم ، قد ادت للعلم احسن خدمة بتيسيرها مباحثهُ العويصة ، ومثابرتها على بث التفكير العلمي ، والمبادئ العلمية ولقد كانت ، ولا تزال ، مدارس صالحة لطوائف من المتعلمين لا يتهيأ لها ان تساير حركة الرقي الفكري في العالم الاَّ من سبيلها

***

واذا ذكرت النهضة العلمية في الشرق الادنى وذكر انصارها فالمقتطف جدير بان يحمل رايةَ السبق في هذا الميدان

خمسون عاماً من اعوام الجهاد في خدمة العلم وحرية الفكر في الشرق ينظمها الدهر فوق جبين شيخ المجلات ، إكليل مجد وفخار

مصطفى عبد الرازق